الوحدة في الخطاب القومي العربي من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥
دراسة في ضوء التحليل النقدي للخطاب[(١)]

نورهان عبد الرءوف أحمد

موضوع الدراسة وهدفها:

تأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة في طريق واصل بين الماضي والحاضر، يُخضع إرثنا الخطابي السياسي العربي إلى تحليل نقدي؛ إن لم يكن بغرض التقييم أو المراجعة، فمن أجل إدراكٍ أشمل لمواضع سداده ومواضع زللـــه. مِن ثَم فهي تحاول تحليل التشكل الخطابي لأيديولوجيا الوحدة في الخطاب القومي العربي، متمثلًا في تياريه الرئيسين: الناصري والبعثي؛ من حيث تأسيس مفهومها وتطوره، والوسائل اللغوية والخطابية المستخدمة في ترويجها وترسيخها، ثم توظيفها خطابيًا بوصفها أداة لاكتساب الشرعية السياسية وتنازعها. وهي في هذا كله تطمح أن تقدم إسهامًا موفقًا في حركة البحث ضمن مجال التحليل النقدي للخطاب، وهو مجال ما تزال البحوث العربية حديثة عهد به.

مادة الدراسة:

تتكون من مجموعةٍ من نصوص الخطاب القومي العربي لكلٍ من:

١- الرئيس المصري جمال عبد الناصر، رئيس جمهورية الوحدة بين مصر وسوريا لقرابة ثلاث سنوات.

٢- السيد ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي والأمين العام الأسبق لقيادته القومية.

المجال النظري الذي تنتمي إليه الدراسة: التحليل النقدي للخطاب.

وهو ضرب في تحليل الخطاب يتخذ موقفًا ناقدًا من الكيفية التي تُستعمل بها اللغة، ويتجه إلى تحليل النصوص بهدف الوقوف على أبعاد السلطة والأيديولوجيا والتغير المجتمعي فيها.

وُضِعت أسس التحليل النقدي للخطاب من قِبل مدرسة "اللغويات النقدية" التي تطورت في بريطانيا في سبعينيات القرن العشرين؛ معتمدةً على نظريتي النحو النظامي الوظيفي والسيميائية الاجتماعية عند مايكل هاليداي؛ الذي أعلى من شأن دور القواعد اللغوية في التحليل الأيديولوجي؛ متميزًا عن كلٍ من التيار الرئيس في علم اللغة آنذاك الخاضع لهيمنة نموذج تشومسكي، وعلم اللغة الاجتماعي الذي يتعامل مع أنظمة اللغة نفسها لا مع واقع الاستعمال.

كما يُفيد من بعض النظريات اللغوية الأخرى كنظرية أفعال الكلام، ومفهوم التحويل النحوي مع ربطه بالمعالم الأيديولوجية داخل النصوص، وبعض مفاهيم نحو الجملة.

أقسام الدراسة:

تنقسم الرسالة إلى: مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة.

---

(١) نُوقشت هذه الرسالة المقدمة من الباحثة: نورهان عبد الرءوف أحمد، المدرس المساعد بقسم اللغة العربية، بكليـــة الألســـن، جامعة عين شمس، لنيل درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية بكلية الألسن، جامعة عين شمس، وقد تكونـــت لجنـــة الحكـــم والمناقشة من: أ. د محمد السيد سليمان العبد (مشرفًا)، وأ. د. إيمان السعيد جلال (مشرفًا)، وأ. د. محمود أحمد نحلة (مناقشًا)، وأ. د. محي الدين محسب (مناقشًا)، وقد مُنحت الباحثة درجة الدكتوراه بتقدير "مرتبة الشرف الأولى".

تعرف **المقدمة** بموضوع الدراسة ومادتها وهدفها وأقسامها. أما **التمهيد** فيشرح مجال التحليل النقدي للخطاب، ثم يقدم خلفية تاريخية عن زمن مادة الدراسة.

يحمل **الباب الأول** عنوان: **قضية الوحدة بين السياق التاريخي والمنظور الخطابي**، وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقع موضوع الوحدة بين موضوعات المرحلة التاريخية، ويتتبع منحنى بروز موضوع الوحدة وخفوته بين غيره من موضوعات الخطاب القومي، من خلال مبحثين:

الأول: تعقب تاريخي كمي لمستوى حضور قضية الوحدة في الخطاب.

الثاني: تعقب تاريخي كيفي لمستوى حضور قضية الوحدة في الخطاب.

أبرز نتائج الفصل:

أظهر التحليل أن فترة التوافق حول الوحدة بين المرسِلَيْن كمًا وكيفًا وتوجيهًا لم تتعدَ السنتين الأوليين من الوحدة الرسمية. قبلهما لم يكن سوى التنظير البعثي والمرور الناصري العابر، وبعدهما جاء التعارض الصريح في التوجيه، ثم التحجر في الترديد؛ الذي انعكس أحيانًا في هيئة ارتفاع كمي في نسبة تردد اللفظ مع انخفاض في مستوى أهميته وتراجعه إلى خلفية موضوعات أخرى.

الفصل الثاني عنوانه **التشكل الخطابي لمفهوم الوحدة وتطوره في الخطابين البعثي والناصري**، ويضم مبحثين:

الأول: المعنى العام "للوحدة" لغةً واصطلاحًا، رجحت فيه القول بتأويل كلمة "الوِحدة" بكسر الواو في مثل هذا السياق القومي على أنها مصدر هيئة، لا مصدر مطلق.

الثاني: مفهوم الوحدة في التصورين الناصري والبعثي، ويحلل مفهوم الوحدة في الخطابين؛ موظِّفًا مجموعة من مفاهيم علم الدلالة الإدراكي، أهمها:

١- مفهوم "الإطار الدلالي" الذي يعني البنية المعرفية الضرورية من أجل فهم كلمة معينة أو مجموعة مترابطة من الكلمات.

٢- مفهوم "خطاطات الصورة" ويقصد بها العناصر الذهنية الأولية التي تسهم في تفسير بنى ذهنية أكثر تعقيدًا.

أبرز نتائج الفصل:

- أظهر التحليل اختلافًا بين الإدراكين الناصري والبعثي؛ فالإطار الدلالي الذي يَنْشَط خلاله مفهوم الوحدة في الخطاب الناصري هو إطار التوحيد بشتى صوره وتمثيلاته، أما في الخطاب البعثي فهو يَنْشَط خلال ما أطلق عليه عفلق القضية العربية التي تضم شعارات البعث الثلاثة: الوحدة والحرية والاشتراكية.

وقد أثَّر هذا الاختلاف الإدراكي بين المرسلين في الخلافات السياسية بينهما:

من ذلك رَفْضُ عبد الناصر لأية تعددية حزبية وعدُّه إياها مبعث تفرقة بين أبناء الوطن الواحد، في حين ربَطَها البعث بشعار الحرية، وعد غيابها مناقضًا للممارسة الصحيحة للوحدة.

كذلك آمن عبد الناصر بفكرة "**البلد النموذج**" الذي يطبق الاشتراكية داخل حدوده، في حين رفضها التصور البعثي عادًّا الفصلَ بين الوحدة والاشتراكية نوعًا من التجزئة.

كما كانت فكرة النضال القصدي ذات قيمة محورية في الربط بين المظاهر الثلاثة للإطار البعثي؛ الأمر الذي انعكس في خطاب عفلق في صورة اعتراض على الرؤية القدرية لتحقق الوحدة، وهي فكرة عبرت عن نفسها في أكثر من موضع من الخطاب الناصري.

– أظهر التحليل كذلك اختلافًا بين الخطابين من حيث خطاطات الصورة التي يتمثلها كل منهما للوحدة؛ فقد مال الخطاب الناصري إلى تصور الوحدة من خلال خطاطات صورة حركية، كخطاطتي الربط والتجميع؛ تتيح مساحة من الاستقلالية لكلٍ من مكوناتها، أما الخطاب البعثي – آنذاك – فقد مال إلى تصور الوحدة من خلال خطاطتين؛ إحداهما ساكنة تمامًا وهي خطاطة الجزء–الكل، والأخرى هي خطاطة الدمج، وهي تصل بنهاية حركتها إلى التقييد التام؛ ما يُبطِل حقَّ أيٍّ مكونٍ من مكونات الوحدة في مراوحة موضعه منفردًا وإلا عدها الإدراك البعثي حالة مَرَضية.

ولهذا الفارق الإدراكي مبرراته الممتدة في التاريخ المُشَكِّل لفكر كلا المرسِلَين؛ فقد سعى الفكر القومي في المشرق العربي إلى إلغاء الدول القُطرية التي تعد نتاجًا للتجزئة الاستعمارية الواقعة على تركة الحكم العثماني في منطقة الشام الكبرى والعراق تبعًا لاتفاقية سايكس بيكو، أما الدولة الحديثة في مصر والمغرب العربي فاحتفظت بشرعية تاريخية لم ينشئها الاستعمار، وفُهِمَت الوحدة فيها على أنها خروج من الحدود الكيانية الضيقة إلى علاقة تنموية أوسع، وليس إلغاءً للدولة ذاتها.

الفصل الثالث من الباب الأول عنوانه **الدور الخطابي وصراع الهيمنة**، ويدرس مواضع الاتفاق والاختلاف في الموقع الخطابي بين المُرْسِلَيْن من حيث جماعة كلٍ منهما الخطابية ومنصبه السياسي، وأثر هذا الاختلاف في الصراع على امتلاك السلطة الرمزية والوسيط الخطابي. وذلك من خلال مبحثين:

الأول: انتماء المرسل.

الثاني: المنصب السياسي وتحولاته.

أبرز نتائج الفصل:

اتفق المرسلان في الانتماء إلى دائرة الشعب العربي، وإلى الفكرة القومية. لكن اختصاص عفلق بالصفة الحزبية ووجود عبد الناصر في منصب الحاكم مع تحكمه في أجهزة الدولة، قد ضمنا نفوذًا جماهيريًا أكبر للخطاب الناصري، مما سبّب تحفظ البعثيين، خاصة مع سبقهم في رفع شعار الوحدة، وإصرار عبد الناصر ذاته خطابيًا على إبعاد نفسه عن أدوار المحرض أو الفاعل أو المستفيد منها. وهو ما أدى إلى نزاع خطابي بين الطرفين حول الشرعية الوحدوية والمصلحة القومية، وأيضًا حول السيطرة على الوسائط الخطابية؛ نزاع جعل دعاة الوحدة أنفسهم يسهمون في تحجر الشعار وفقدانه محتواه.

الباب الثاني من الدراسة يحمل عنوان **تشكيل الهوية العربية الموحدة**، ويحلل الوسائل اللغوية التي وظفها الخطاب القومي بغرض تأسيس هوية عربية موحدة لجماهيره؛ تحليلًا يفيد من توجه باحثي

جامعة فيينا في التحليل النقدي للخطاب، المنصب على التشكيل الخطابي للهويات القومية.

وينقسم الباب إلى فصلين: الأول بعنوان **الاستقطاب**؛ أي محاولة الخطاب تشكيل قطبي "نحن" و"هم"، ويضم ثلاثة مباحث:

الأول: النزوع إلى قطب الانتماء.

وأبرز الوسائل التي رصدتها الدراسة لتحقيق هذا الغرض في الخطاب القومي هي: الإفادة من القوة الأيديولوجية لضمير المتكلمين "نحن" وتضافراته في الأساليب اللغوية المختلفة كأسلوب الاختصاص، والخيارات المعجمية الدالة على الانتماء والتضام، والإيحاءات السياقية الموجِّهة.

الثاني: الاحتواء.

ومن أهم الوسائل الموظفة بغرض الاحتواء ضمن مجموعة "نحن": التعيين المباشر عبر الإحالات الشخصية والمقامية، واستعارات الانتماء؛ خاصة استعارات الأسرة القائمة على نموذج الأب الحاني؛ الذي يسهم في تكوين نظام أخلاقي قائم على الألفة والمسئولية المتبادلة وينشئ علاقات اجتماعية تكاملية تعد أفراد الفئات المحتواة أبناء متساوين لأسرة واحدة لا يمكن الانسحاب من عضويتها مهما كانت مضطربة، واستعارات تشكيل الكيان القومي خاصة تلك التي تعبر عن الأمة بجسم حي تجب حمايته من الأمراض والطفيليات، وعدد من التعبيرات التي تقدم تصورًا لكيانٍ فردٍ في جوهره متعدد في أوجهه ومتعلقاته؛ فتتغلب على واقع تعدد الكيانات العربية المراد احتواؤها في كيان كلي، واستدعاء الأصول التاريخية بغرض التعبير عن هوية موحدة قائمة بالفعل، أو بغرض حشد الجماهير للانخراط في الهوية المراد إنشاؤها عبر المبدأ الحجاجي القائم على الاعتبار بدروس التاريخ.

الثالث: الإقصاء.

وأهم وسائل الإقصاء من مجموعة الانتماء في الخطاب القومي كما رصدتها الدراسة: التصريح بالفئات المقصاة ومعيار الإقصاء: عبر تقنية التعريف أو الحد، وتقنية السؤال والجواب، والمقارنة، والذكر والاتهام المباشِرَيْن. وكذلك إنشاء مواجهة عبر ثنائيات الإحالة الشخصية: "نحن" و"هم" أو "أنتم و"هم"، وكلٌ من النفي الإنجازي والقضوي، والقيم العلاقية للألفاظ؛ سواء المكانية أو الزمانية أو الهيئية، واستعارات الاستبعاد والتشويه، ومغالطة التفكير التشبيهي الزائف، وصياغة الكلمات المُفارِقة أو المُنفِّرة أو الساخِرة، وأخيرًا توظيف الأمثال الشعبية.

أبرز نتائج الفصل:

– اشترك الخطابان الناصري والبعثي في الفئات التي يسعيان إلى احتوائها ضمن مجموعة الانتماء العربية، وتلك التي يسعيان إلى إقصائها منها، وكذلك في كثير من الوسائل والخطابية التي وظفاها للمقصدين. لكن خلافًا وقع بينهما بأثر من نزاعهما السياسي، وهو أن كُلًا منهما ضم الآخر إلى الفئات المقصاة، بالرغم من تطابق شعاراتهما المرفوعة وأهدافهما المعلنة، وتأكيد كلٍ منهما انتماءه إلى العروبة وإيمانه بالفكرة القومية.

– كما أن وسائل الإقصاء في الخطاب القومي أسهمت في تكوين حدٍ فاصلٍ بين مركز يُعَدُّ منتميًا إلى المجموعة، وجانبين يُقصَيان إلى هامشها أو إلى خارجها، ومن ثَم حققت لغويًا وظيفتي تراتب

السلطة واكتساب الشرعية.

– لعله مما يحسب للخطاب القومي العربي أنه لم يَتَّسِم بالعنصرية أو المذهبية أو الطائفية – بخلاف كثير من الخطابات القومية في العالم –؛ فلم يعمد إلى إقصاء أيٍ من مواطني الأقليات في البلدان العربية. ولكن نقطةً أخرى تُحسَب عليه، وهي أن الفئات التي أقصاها بالفعل من الدائرة العربية لم تكن سوى خصوم مرسليه السياسيين، وهو ما يؤدي إلى خلل إدراكي لدى المتلقين؛ لم تغطه محاولات التنميط المتعددة. فتلك الفئات المقصاة قد تنطبق عليها فعليًا السمات الأولية لتعيين العرب؛ حتى وفقًا لمقاييس التاريخ والثقافة واللغة التي اعتمدتها القومية العربية. وربما تنطبق السمات المحدِّدة للعرب على بعض تلك الفئات أكثر من غيرها؛ إذا طُبِّق المقياس العِرقي.

بل إن هذا الإقصاء يَشِذُّ حتى عن الإطار الدلالي الإدراكي لمفهوم الوحدة في الخطاب الناصري الشامل لشتى أشكال التوحيد، وإن كان له ما يبرره في الإطار البعثي الذي يربط تمامًا بين الوحدة والفكر الاشتراكي، كما تَبَيَّن من الباب الأول.

أما **الفصل الثاني** من الباب الثاني فعنوانه **تنميط الشخصية العربية**؛ أي تمثيل خصائص المواطن العربي النموذجي وفقًا لتصور الخطابين الناصري والبعثي. ويضم ستة مباحث:

الأول: وصف هوية الذات.

الثاني: وصف النشاطات.

الثالث: وصف الأهداف.

الرابع: وصف القيم والمعايير.

الخامس: وصف الموقع والعلاقات.

السادس: وصف الموارد.

أبرز نتائج الفصل:

– بين المرسِلَيْن فارق أساسي في استراتيجية تمثيل الوجه القومي للعربي النمطي؛ فقد اتبع عبد الناصر استراتيجية التبرير والاستمرار وحاول توجيه سمات يعدُّها قارة في الشخصية العربية، أما عفلق فقد اتبع استراتيجيتي التحول والهدم، وسعى إلى إظهار السلبيات وتبديلها، ولعل هذا أحد أسباب اتساع مساحة القبول الجماهيري العربي للخطاب الناصري عن البعثي في تلك المرحلة.

– في وصف أنشطة المجموعة العربية حرص الخطاب القومي بطرفيه على تمثيل الشعب العربي في صور حيوية قوية، ومن وسائل هذا: تقديمه فاعلًا لنمط الأفعال المادية، ومختلف التعبيرات والألفاظ الموحية بالقوة في دلالتها المركزية أو الهامشية.

– الأهداف العربية المحددة في الخطاب القومي تكون في الغالب أهداف المُرسِل نفسه، لكنه يسعى إلى نسبتها إلى الشعب العربي، ووصفها بالنشوء الذاتي من داخل المجموعة العربية؛ عبر توظيف الأفعال الكلامية التوجيهية، ومجموعة من حروف المعاني، وتعبيرات النسبة والتملك. كذلك يسعى إلى وصفها بالشمول والامتداد الزمني.

– يُقْدِم المُرسِلان على رفع بعض أهداف خطابهما إلى مستوى القيم والعقائد لإكسابها امتثالًا خُلُقِيًّا، فيدرجانها ضمن أنماط السلطة الرمزية، أو ضمن قيم إنسانية عامة، أو يعبران عنها عبر أفعال كلامية إيضاحية مسندة إلى الشعب نفسه، أو يسردانها ضمن تجارب حية مُزَكَّاة.

– حدد الخطاب القومي علاقة العرب بالاستعمار في التعبيرات المباشرة والمجازية للصراع وتناقض المصالح، أما علاقتهم بشعوب العالم فعبر عنها بتعبيرات الضرورة الذاتية، والقيمة الإنسانية للعالم، والامتداد المتجذر في التاريخ.

– ثمة ثلاثة أنماط من الموارد يتناولها الخطاب القومي العربي: المورد البشري الذي يتصوره الخطاب طاقة مادية خلاقة، والموارد المعنوية؛ كاللغة، والتاريخ، والوحدة ذاتها، والآلام القومية التي يحولها الخطاب إلى مصادر قوة انسجامًا مع أساطير البعث القديمة في شرق المتوسط، وأخيرًا الموارد المادية المتمثلة في الثروات والمشاريع الاقتصادية والتنموية التي يطالب المرسل بها أو يعرض منجزه فيها.

وتُختَتَم الدراسة بخاتمة تُجمِل أهم عناصر التحليل ونتائجها.